مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
Eissn :2600-6405 Issn : 2353-0472
المجلد 9 /العــدد: 2(2021)، ص: 18-37

سياسة روما الثقافية وأثرها في بلدان المغرب القديم

الأستاذة: حميدة نشنش[1]
[1]المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة

تاريخ الاستلام: 2021/05/05 تاريخ القبول: 21 /2021/05 تاريخ النشر: 2021/06/01

لقد اتصفت السياسة الرومانية في مستعمراتها سواء في إفريقيا أو في مناطق أخرى بالمرونة؛ وهذا لخدمة مصالحها السياسية والعسكرية ، والتي كان من أهدافها تثبيت سيطرتها وتهدئة الأنفس المغربية، لقبول الحضارة الرومانية بمختلف مظاهرها؛ أي الإقبال على الترومن[1]. وهدفت روما من خلال هذه السياسة إلى إلغاء وطمس كل مقومات الشعوب المهزومة التي ضمتها إلى حضيرتها، وتعويضها بنظم رومانية سياسية واقتصادية وعسكرية وحضارية[2].

وفي هذا الإطار حاولنا في هذه المقالة تتبع سياسة روما الاستعمارية في الميدان الثقافي كأنموذجا ، وتبيان الجهود التي بذلتها في سبيل جعل المنطقة في مختلف مظاهرها الحياتية تبدو وكأنها أوجدت محيطا رومانيا في المنطقة يعكس نجاح السياسة الرومانية (الرومنة)[3]. وفي المقابل بينا كذلك أثار سياسة روما الثقافية على المجتمع المغاربي. ولرصد هذه السياسة في منطقة بلاد المغرب، حاولنا تتبع سياسة روما في مختلف المجالات التي لها علاقة بالجانب الثقافي كما يلي:

1) في مجال اللغة والتعليم:

لم تكن روما ترضى لأسباب سياسية بأن تعوض اللغة اللاتينية لغة أخرى[4] ، باعتبار أن اللغة اللاتينية تعد أولى اللبنات في سياسة رومنة المجتمع المغاربي[5]، وهو ما يتضح لنا فيما قاله الأسقف أوغسطينوس:"إن الدولة الرومانية التي تعرف كيف تحكم الشعوب لم تفرض على المغلوبة منها سيطرتها السياسية فحسب بل لغتها أيضا"[6].

وفي هذا الصدد قامت روما بفرض اللغة اللاتينية عن طريق الجيش سواء قهرا أو طواعية، وعن طريق المرافق الضرورية والاجتماعية كالأسواق والمسارح والمدرجات والحمامات، وأيضا عن طريق المدارس والمكتبات، وعن طريق الإدارة الرومانية ، بل وشجعت الأهالي على تعلمها والاعتراف بثقافتها، وجعلت من ذلك معيارا يؤهل صاحبه للحصول على امتيازات مدنية منها درجة المواطنة الرومانية[7]، أو للترقية في سلم الوظائف الاقتصادية والاجتماعية...[8] ، وفي المقابل رفضت الاعتراف باللغة البونية في الدوائر الرسمية وحرمتها من نفس الحقوق[9].

ورغم أن المدارس تعد من أهم عوامل نشر اللغة اللاتينية، إلا أن المؤرخين يذكرون أن الدولة لم تكن تتدخل في مسألة التعليم ونشره إلا في حالات استثنائية نادرة، إلا أن البلديات كانت تهتم بدورها بإعداد هياكل التعليم، وانتداب المعلمين الذين يقومون بالتدريس، وكذلك تعمل البلديات على دفع رواتبهم وأجورهم، وإذا كانت البلدية فقيرة أو متقاعسة أو غير مهتمة بنشر الثقافة والتعليم، فإنه يلاحظ تطوع أحد الأغنياء أو جماعة من الأفراد بتأسيس مدرسة والقيام بشؤونها وتحمل نفقاتها.

كما كانت كل مدينة تشجع أبنائها على التعليم، وتحثهم عليه بجميع الوسائل وتقيم الاحتفالات لتمجيد الناجحين منهم الذين أصبحوا من المفكرين البارزين ومن فطاحل علماء البيان، وكانوا ينتدبونهم لمراتب الشرف ويقيمون لهم التماثيل، ويسجلون ما أحرزوا عليه من نجاح مدرسي وفوز أدبي.

ولم يكن التعليم الروماني يشتمل في الحقيقة على درجات واضحة من ابتدائي وثانوي وعالي، بل أن بعض المؤرخين يرون أن إطلاق مصطلح جامعة أو كلية قرطاجة ما هو إلا مجرد قول وتعبير جرت به العادة لا أكثر ولا أقل، غير أنه كان هناك تدرج في التمارين حسب سن الطفل، ومقدرته ومعلوماته، فيبدأ المرحلة الأولى بالقراءة والكتابة والحساب، وفي المرحلة الثانية يتعلم فيها تفسير

نصوص الشعراء والمؤرخين كفرجيل وطالوست ، ثم يتدرب على الخطابة والبلاغة، والإلقاء والتاريخ والقانون والنحو والصرف[10] ، ويلقن أيضا مبادئ الموسيقى والعروض والفلسفة والرياضيات والفلك[11]، وأرقى هذه التمارين وأعلاها درجة عندما يبلغ الطلبة السابعة عشرة من عمرهم، فحينها يلتحقون بالمدن الكبرى مثل قرطاجة وقرطة، ومع ذلك كانت توجد مدارس لا بأس بها حتى في المدن الأخرى التي هي أقل شأنا كمدرسة مداوروش الذائعة الصيت التي كان الأطفال يأتون إليها من بعيد لمزاولة دروسهم فيها[12].

ونظرا لانتشار مراكز التعليم في الحواضر، فقد كان مجتمع المدينة أكثر تأثرا بالرومنة اللغوية من غيره. وتعد قرطاجة نموذجا حيا لهذا التأثير، حيث تحولت في أوج إزدهارها وتألقها إلى عاصمة للثقافة اللاتينية في إفريقيا بمدارسها وطلابها وأساتذتها[13]، وهو ما يؤكده أبوليوس المادوري* من خلال قوله:"أمام هذا الحشد المدهش من المستمعين، الأجدر بنا أن نقوم بتهنئة قرطاجة لامتلاكها العديد من محبي العلوم...حيث تعلمت في طفولتي لدى أساتذتكم...قضيت سنوات شبابي بالقرب منكم ، وسمعت دروسكم، وحتى إذا ما أكملت دروسي في أثينا ، فإنه هنا في قرطاجة أين ابتدأتها...ولهذا أينما ذهبت أفتخر بكوني كنت تلميذكم ، وأقدم لكم كل أنواع الثناء لذلك... "[14] .

وكان من نتائج هذه السياسة أن ظهر جيل من الكتاب الأفارقة باللغة اللاتينية، وإن تأخر ظهورهم لأكثر من قرن، والذين أبدعوا في هذه اللغة أكثر من أهلها[15]. و لم يبرز المغرب للوجود علماء محليين فقط، بل أنجب أعلاما ذاع صيتهم في الدنيا بأسرها، سواء تعلق الأمر بالأدب الوثني وذلك بدءا من القرن الثاني، أوبالأدب النصراني الذي كان للمغاربة فيه مركزا ممتازا[16].ومن أشهر الشخصيات التي كانت علامة على النخبة المرومنة هو أبوليوس المادوري[17].

ولكن رغم ذلك ظل أغلبية سكان المدن المحليين يتخاطبون فيما بينهم باللغة الليبية ولمدة معينة اللغة البونية*، ولم يستعملوا اللغة اللاتينية إلا في علاقاتهم الرسمية أو لقضاء حاجاتهم، أما في الأرياف فليس من شك أن القوم ظلوا دهرا طويلا يجهلون لغة المحتلين[18].

2)رومنة الأسماء وعلاقتها بالمواطنة:

إن تطبيق روما للسياسة المذكورة في ميدان الثقافة والتعليم، جاء إدراكا منها أن استمرار سيطرتها على المنطقة يجب أن يستند إلى سياسة استقطاب العناصر المحلية ذات الولاء الراسخ للرومان بفعل عملية الإدماج عن طريق الثقافة واللغة والحضارة الرومانية، لذلك اعتبروا أن مبدأ المواطنة أفضل وسيلة لتجسيد أهداف روما وتثبيت سلطتها، وذلك باعتبار المواطنة ترقية اجتماعية وسياسية للأفراد والجماعات، وترسيخا للولاء لروما[19].

وبهذا فقد كانت عناية الأباطرة موجهة إلى الطبقة الارستقراطية المغربية لتشجيعها على الاندماج في الوضع الجديد، والعمل على تنمية التأثير الروماني في المغرب، وكان لهذه السياسة أثر في خلق طبقة أرستقراطية مغربية في المدن عرفت بولائها للرومان نظرا للترابط المصلحي بينها وبينهم، أما أغلبية الجماهير المغربية ظلت تعيش خارج هذا الاعتبار[20].

ومن أهم المكاسب التي يتحصل عليها السكان المحليين وفق القانون المتعلق بمنح المواطنة هو :اتخاذ الاسم الثلاثي (Tria Numina) المنصوص عليه في قانون "الحالة المدنية الرومانية" للاندماج نهائيا في الشعب الروماني، بل قد يصل إلى حد فرض تغيير الملابس التي يعتبرها القانون الروماني أجنبية عن الزي الروماني ، بحيث أن المتجنس أي الحاصل على حق المدينة (المواطنة الرومانية) ظل إلى القرن الثاني الميلادي لا يمكنه الخروج إلى الحياة العامة في غير اللباس الروماني وعلى الخصوص التوجة (toge). وأيضا اكتساب المشروعية الزوجية

بحيث يصبح اقترانه بزوجته شرعيا تعترف به القوانين الرومانية ، والتي بدونها كان زواجه يعتبر اقترانا غير قانوني وغير مشروع ولا يعترف بما يترتب عنه من أبوة وأمومة وقرابة. وكذلك اكتساب كيان وسط المواطنين الرومان من خلال الاسم الثلاثي الذي هو عنوان لدرجة رفيعة. إلى جانب اكتسابه لحق التملك[21] .

إن مسألة الأسماء في غاية من الأهمية، فقد حمل الأهالي الذين تحصلوا على المواطنة في أغلب الحالات أسماء وألقاب العائلات الرومانية الارستقراطية التي اتخذوا مشاهيرها حماة لهم[22]، فعادة ما يقلد الأهالي المرومنين الرومان في تبنيهم للاسم الثلاثي المتكون من الاسم(Praenomen) واللقب(Nomen) والكنية(Cognomen)، بحسب الجهة المخولة لمنحه إياه حق المواطنة التي اختلفت من العصر الجمهوري إلى العصر الإمبراطوري، ففي العصر الأول كانت المجالس (Comitia) الممثلة في القادة وحدها المؤهلة لمنح التجنيس، ولهذا كان الأهالي يتبنون اسم ولقب الشخص الذي لعب دور الوساطة بينهم وبين السلطة، الذي قد يكون حاكما أو قائدا أو وكيلا أو سيدا.أما في العصر الإمبراطوري فقد جرت العادة أن يحمل الفرد اسم ولقب الإمبراطور صاحب نعمته مثل لقب س.أو ك .إيوليوس (CأوG.Iulius) نسبة إلى يوليوس قيصر أو أغسطس[23]. ومن هنا يصعب تمييز الروماني بالأصل عن الروماني المتجنس، ونادرا ما نجد فردا احتفظ بلقبه الأصلي ، وبالتالي من الخطأ اعتبار كل الأسماء التي خلدتها النقوش هي أسماء الرومان بالأصل[24] .

والملاحظ أن المشرع الروماني كان محتاطا في منح المواطنة، بل إن كلوديوس منع الأشخاص الأجانب (Pérégrins) من حمل أسماء رومانية، ومن استعملها يعد مغتصبا لها لأنها عنوان شرف، كذلك بالنسبة للذي يرتدي التوجة من الأجانب أو العبيد أو المحكوم عليهم فإنه يغرم، وبالتالي فالمواطنة ارتقاء وتحرر وفق التشريع الروماني، وهذا الوضع هو الذي دفع بالكثير من سكان المدن للعمل

على الحصول على المواطنة والاندماج الكلي والقانوني، سواء لتحقيق المساواة أو لرفع المظالم الواقعة بحقهم، خاصة أنهم كانوا تحت أعين السلطة الرومانية الرسمية باستمرار عكس سكان الريف، إلى أن جاء دستور كركالا الذي عمم المواطنة الرومانية على جميع أحرار الإمبراطورية، إلا أن هذا التعميم لم يشمل الأرياف بقدر ما استهدف المدن التي كان سكانها قد تأقلموا مع الحضارة الرومانية، وبالتالي لم يكن دمجهم سوى تسوية لأوضاعهم الإدارية لا أكثر، وهو ما شبهه البعض بالرومنة القانونية[25].

وفي الحقيقة لم تكن روما تهتم بفتح باب الإدماج أمام جميع الفئات الاجتماعية المغربية، باعتبار أن ملكية الأرض تعتبر من الشروط الأساسية للاندماج، فليس من الصعب تصور نسبة المغاربة التي كانت تملك أراضي في الولايات الرومانية نظرا لأهميتها الاقتصادية، إلى جانب أنها هدفت من خلال مسايرتها وملاطفتها للارستقراطية المحلية فقط- التي عرفت بنفوذها السياسي وبطموحها إلى القيادة سواء في الحواضر أو الأرياف المغربية خصوصا في نوميديا وموريطانيا- بمنحها امتيازات مغرية واستثنائية(وهذا بفتح باب الارتقاء الاجتماعي وتسليمهم بعض المسؤوليات المختلفة على المستوى الداخلي) لكي يندمجوا في الوضع الجديد بعد أن يتعودوا على الأمر الواقع الناتج عن الاحتلال الروماني، مقابل ولائهم وخدمتهم للمصالح الرومانية وحتى يكونون قدوة لقومهم في هذا السبيل ، وهذا لتكسب مودتهم وتأمن خطر ثورتهم ضدها، وتوفير الأمن للمستعمرات الرومانية كي تمارس نشاطها الاستغلالي في أنسب ظروف.

وأدت هذه التنازلات الهادفة لنشر الرومنة وتدعيمها[26]، إلى بروز "أرستقراطية بلدية" التي ستنمو لديها تدريجيا بحكم المصالح المشتركة وحتى الاستعلاء، الشعور بالانتماء إلى روما بالقدر الذي تفقد فيه شعورها بالروابط التي يفترض أن تكون موصولة بينها وبين الجماهير الأهلية، ولكن رغم ذلك

شعرت هذه النخبة التي تعايشت مع الرومان وتقاسمت معهم الثروة والسلطة واندمجت في الثقافة اللاتينية أنهم كانوا رعايا لروما أكثر من إحساسهم بأنهم رومان ولم تفقد الشعور بجذورها[27].

وبهذا يتضح لنا مما سبق أن الارستقراطية المحلية لم يكن لها خيار آخر أمام الامتيازات التي منحها إياها الاحتلال الروماني غير الخضوع وتبني مظاهر غريبة عنهم ، وهي مظاهر الحضارة الرومانية، والذين نفروا من هذه المظاهر رحلوا عن أراضيهم ، مفضلين الصحراء والأراضي الجرداء والحياة الصعبة والحرمان عن العبودية[28].

3) في المجال العمراني ذات الطابع الثقافي:

لقد ازدهرت الحياة العمرانية في العهد الروماني وظهرت العديد من المدن في بلاد المغرب القديم، وانتشرت هذه المدن سواء منها الساحلية أو المدن الداخلية، ولقد كانت هذه المدن تشيد ليس الغرض منها هو تعمير بلاد المغرب وإنما خدمة لمصالح روما، وفي هذا الإطار نجد مدنا قد شيدت في إطاررومنة بلاد المغرب واحتواء لسكانه، وهذا من خلال تقليدهم للرومان في حياتهم في العديد من النواحي[29].

وبذلك غدت المدينة منبع إشعاع لحضارة روما ومركز سلطتها في البلاد، وكان نجاحها في التأثير على محيطها نجاحا لسياسة الرومنة التي بدت مظاهرها مجسدة في تخطيط المدينة وهياكلها العمومية ونظامها الاجتماعي ، حيث كانت مدينة روما هي النموذج المحتذى من جميع الأوجه.فالمدن التي ورثها الرومان بحكم الاحتلال أقحمت فيها منشآت السيادة، والمؤسسات المدنية المساعدة على نشر تقاليد الثقافة الرومانية وأطرها الحضارية، كالساحة العامة والبازليكا ومقر مجلس البلدي والمعبد الرسمي(الكابتول)، مع إحداث تغييرات على المخطط العمراني كي يتمحور حول الشارعين الرئيسيين المتقاطعين في مركز المدينة وهما

الكاردو والديكومانوس.أما المدن التي تم إنشاؤها على أرض عذراء كالمستعمرات والمعسكرات، فقد تم تخطيطها على شاكلة واحدة، اجتهد المخططون أن يطبقوا فيها قواعد العمارة والعمران الروماني[30].

وهكذا شهدت بلاد المغرب مع الاحتلال الروماني ميلاد مرافق حضرية عديدة زودت المدن المغربية بعمائر عمرانية مهمة ، و جعل العديد من هذه المدن تزخر بمرافق ترفيهية دلت على جانب من الرقي الاجتماعي ، خاصة بعد أن أصبحت تنظم فيها الألعاب بتمويل من طرف أعيان المدينة[31]، والتي بلغت أوجها خصوصا في القرن الثالث الميلادي[32].و كان عدد بنايات التسلية الرومانية في بلاد المغرب يقل كلما اتجهنا من الشرق إلى الغرب، وهو دليل على مدى ارتباطها بالتواجد الروماني في هذه المنطقة[33]. ومن أهم المنشآت ذات الدور الثقافي نذكر:

أ-المسرح(threatrum): كانت كل مدينة مهمة وثرية إلى حد ما في بلدان المغرب القديم تملك مسرحا[34]، وهو يعد من المنشآت المعمارية ذات الدور الثقافي البارز، حيث أدى دورا ثقافيا ترفيهيا، وامتاز بالضخامة وبأشكال هندسية رائعة[35]، وكان عبارة عن بناء نصف دائري مغلق بحائط خشبة ضخم ، أما مباني عروض مسرح فكانت تتشكل من خشبة المسرح(scaena) في حين كان يفصل بين الخشبة وفضاء مقاعد الوجهاء والكهنة والقضاة المعروف باسم الأوركيسترا (orchestra) حائط خفيض(pulpitum)، فضلا عن ذلك فقد وزع المهندسون المعماريون الرومان منصات المشاهدين على ذلك الفضاء النصف دائري(cavea)[36]. وقد قدمت على خشبة المسرح أعمالا أدبية كثيرة تمثيلا وغناء بشكل حر مما ساهم في تثقيف الشعب، كما شهد تنظيم احتفالات عديدة في مناسبات مختلفة منها الاحتفال بالشخصيات النافذة السياسية أو الدينية، أو بمناسبات دينية أخرى كاحتفاء بإله، حيث أن التقليد الروماني يقضي بأن تكون الألعاب المسرحية جزء من الاحتفال الرسمي بأحد الآلهة[37]. ومن تلك المسارح مسرح تيمقاد النصف

الدائري المخصص للعروض المسرحية والغناء وغيرها من الأنشطة الثقافية.وتم إنشاء هذا المسرح عام 168م في عهد الامبراطور ماركوس أوريليوس[38].

ب-المدرجات: يعرف ب (Amphitheatrum) وهو عبارة عن مبنى ضخم في شكل مستدير أو اهليليجي تحتل دكانه كامل محيط الدائرة، وفي الوسط يكون الميدان (arena) ، وهو معد للمصارعة والملاكمة والعراك بين المصارعين أو مع الحيوانات الضارية، ويحيط بالميدان جدار قصير يفصل بينه وبين مقاعد المتفرجين ، ويعرف بالحاجز(le podium)[39] ، لحماية المتفرجين من خطر الحيوانات المفترسة. ويعد مدرج ثيسدرة أكبر مدرج في إفريقيا(يقع قرب مدينة الجم الحديثة)، تم بناؤه في زمن الإمبراطور قورديانوس، وأصبح منذ ذلك الوقت يحتضن الألعاب والمهرجانات، ويقدر عددا من الباحثين أن سعته تراوحت بين 30ألف و 40ألف متفرج، إضافة إلى الشرفات التي خصصت للشخصيات وكبارالموظفين وعائلاتهم[40].

ج-الحمامات: يكاد يجمع الأثريون على أن الحمامات اختراع روماني محض، وهي منتشرة في المدن ذات العمارة الرومانية ، وتتكون هذه الحمامات من قاعات ذات هندسة معمارية جميلة ومتناسقة، تزينها المنحوتات المزخرفة ، ولوحات الفسيفساء، مع ذلك المنظر الذي يتكرر في زخرفة الحمامات، والذي يضم كائنات بحرية خرافية، إضافة إلى لوحات فسيفسائية تغطي أرضية القاعات، فالاستحمام في الحياة الحضرية يعد طقسا للإنسان الحضري[41].

ولقد كانت الحمامات ملتقى للشعب يتبادلون الآراء السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها ، وكانت تدل على الحضارة التي آل إليها الرومان ومن أكثر المباني الدالة على عاداتهم وحبهم للحياة الصحية والرياضية، ولهذا لا تخلو مدينة رومانية من الحمامات . وكان الفرد الروماني يقضي جل وقته في الحمام بعد الانتهاء من أشغاله التي تقضى في الساحة العمومية ، فيتجاذب أطراف الحديث

مع أصدقائه في شتى الميادين ويقوم كذلك بعدة أنشطة أخرى في هذا الحمام من إلقاء الشعر واللعب والإجتماع والإستطباب وغيرها من الأنشطة الأخرى، فهي بهذا تقوم مقام المقاهي والنوادي في وقتنا الحالي. ونظرا لأهميتها كان الرومان يولونها أهمية كبيرة من الناحية الجمالية وطبيعة بناءها. ولعل مدينة تيمقاد التي كانت وحدها تحتوي على 14حمام عمومي[42] ، أفضل شاهد على هذه الأهمية.

د-المكتبات: تدل على الاهتمام الثقافي والعلمي البارز للرومان في منطقة المغرب القديم، وأهمها المكتبة الموجودة في مدينة تيمقاد ، والتي تم اكتشافها سنة 1901م، ، وهي تمثل إحدى المكتبات العمومية التي كثيرا ما ورد ذكرها في النقوش والنصوص اللاتينية، ويرجع الفضل في بناء هذه المكتبة إلى كرم مواطن ثري اسمه كاتنيوس فلافيوس الذي قام بأعباء هذا المشروع في القرن الرابع ميلادي، ولقد كلفته 400ألف سيسترس، وتبرع بها لفائدة المصلحة العامة وإثباتا لوطنيته، وتعتبر هذه الأعمال التي يقوم بها الرجال الأثرياء شرفا فخريا لهم.

وتبلغ المساحة الكلية لهذه المكتبة (26م×25م) ، واتخذت شكل نصف دائري، قطر محيطها 12م، وأما عن أماكن الرفوف المخصصة للكتب فلقد كانت هناك ثلاث مدارج مقطوعة بأعمدة وبين كل عمودين تظهر الخزانة التي كانوا يضعون فيها الكتب الملفوفة، وكان المطالعون يجلسون فوق المدارج السالفة الذكر، ويوجد فوق بلاطات عالية عمودان من الرخام الأبيض مزينان وهذا المكان أقيم لآلهة العقل والمعرفة(منيرفا)، وعلى جانب هذه القاعة توجد غرف صغيرة الحجم والتي يمكن أن تكون قاعات خصصت لأغراض ثقافية كالمحاضرات وأعمال التدريس، ويمكن أن تكون المكتبة قد احتوت على 2300مجلد.

وبهذا كانت هذه المكتبة سرحا ثقافيا علميا بأتم معنى الكلمة لما احتوته من قاعات للمطالعة والمحاضرات وعدد المجلدات الضخم، مع العلم أن مدينة

تيمقاد كانت في بادئ الأمر مدينة عسكرية لقدماء الجند. وتعد هذه المكتبة أيضا الوحيدة في إفريقيا والثانية في المستعمرات الرومانية بعد مكتبة إيفاس بتركيا[43].

د-الساحات العمومية(الفوروم):ولا تخلو أي مدينة رومانية من هذا المرفق الهام، وهي عبارة عن ملتقى الطريقين الشمالي الجنوبي والشرقي الغربي(دوكومينوس-كاردو)، وتتكون الساحة العمومية من عدة مرافق ذات طوابع مختلفة كالمعبد والسوق وغيرها من المرافق الأخرى، وتعتبر الساحة العمومية مركز ديني وسياسي وتجاري، فهي القلب المدينة النابض بحركتها النشيطة في مختلف أوجه الحياة وتقام في الساحة العمومية هياكل شرفية يزداد عددها شيئا فشيئا(تماثيل الأباطرة القياصرة...)، وكانت الفوروم أيضا ملتقى للناس في وقت فراغهم وموعد آخرين لقضاء أشغالهم، كما تتم فيها الانتخابات ويوجهون من فوق المنبر الخطب العامة للشعب، وخطب الرثاء والكلمات التأبينية ترحما على الأشخاص ذوي الرتب العالية...وكانت عبارة عن مكان لإعلانات البرامج والاحتفالات القادمة... ومكان لمن يدفعهم الفضول لمعرفة أخبار اليوم ولذلك تم ترتيب مباني الفوروم حول ساحة تحيط بها الأروقة لكي يمكن للمواطنين إيجاد مكان وملجأ ضد حرارة من اليوم وأيضا ضد الطقس.

وهكذا كانت الساحة العمومية الشريان الحيوي لأي مدينة في شتى المجالات ، ومن خلال توسطها كانت تمثل ملتقى عام للشعب ومتنفس لهم للتعبير عن آرائهم وتبادل الأفكار وغيرها من الأعمال الأخرى، وبهذا تكون الساحة العمومية مركز المدينة بأتم معنى الكلمة[44].

وفي الأخير يتبين لنا أنه رغم تزويد روما لمختلف المدن المغربية بهذه المرافق ذات الطابع الثقافي ، إلى جانب مرافق أخرى ، إلا أنها كانت تهدف من وراء ذلك توفير محيط روماني بامتياز يحاكي مدينة روما في عمرانها لإسعاد مواطنيها الرومان في هذه المنطقة ، حتى وإن عملت على التأثير على الأهالي ومحاولة استمالتهم لها

، إلا أنها في الواقع لم تمنحهم الادماج إلا لفئة قليلة منهم تخدم مصالحها في المنطقة.

4)في المجال الديني:

عملت الإدارة الرومانية في المغرب القديم على الجمع بين السلطة الإمبراطورية السياسية والسلطة الروحية ، لتسهيل عملية التحكم في المنطقة التي ما فتئت تثور ضد إدارة الاحتلال[45]. ولهذا كان من مصلحة الدولة أن تشجع عبادة الإمبراطور[46]، والتي بدأت رسميا في قرطاجة سنة 71م في بداية عهدة الإمبراطور فاسباسيانوس(Vaspasianus)، وتعود جذورها إلى سنة 27م عندما أعطى مجلس الشيوخ لأكتافيوس لقب أوغسطس، الذي منحه الصفة الدينية، ففي حياته بنيت له المعابد ولما توفي أعلن عنه إلها. وفيما بعد امتزجت عبادته مع عبادة الإمبراطور الحي خليفة أوغسطس وخليفة روما المدينة المقدسة سيدة العالم.

وقد بذلت روما جهودا كبيرة في سبيل نشر هذه الديانة الرسمية، وتنظيمها في جميع مقاطعاتها، ففي إفريقيا تم وضع على مستوى كل بلدية ساكيردوتس (sacerdotes) أو كهنة مختارين من بين أعضاء البلدية الأكثر رفعة لكي يشرفوا على المراسيم الدينية، وبعدها يتم اختيار في كل مدينة ممثلا من بين كهنة بلدياتها لكي يتم إرساله إلى مجلس الكهان الأعلى المقيم في عاصمة المقاطعة قرطاج، من أجل أن يتم الاحتفال بعبادة الإمبراطور الحي وروما[47]. وكان يرأس المجلس كاهنا كبيرا يدعى ساكيرديدوس(sacerdidos)[48] ، الذي يتم اختياره من طرف التجمع لمدة سنة[49]، وكان هو المسؤول أمام الإمبراطور على حسن هذه الديانة والسهر على شعائرها خدمة لأغراض الإمبراطور السياسية من ورائها[50]. ولهذا كانت التولية لهذه الوظيفة الشرفية مرغوبا فيها كثيرا، حيث اعتبر

أبوليوس (Apuleius) توليه لهذه الوظيفة بلوغا لقمة المجد ، فأقام على شرفه حفلات رائعة في العاصمة بهذه المناسبة[51].

وعلى ذكر هذه الاحتفالات التي كانت على نفقة الكاهن الأعلى من أجل تقديس الإمبراطور، قام ترتوليانوس بإعطائنا وصفا رائعا للأفراح الشعبية التي كانت تواكب هذه الحفلات الدينية وهذا في أواخر القرن الثاني ميلادي[52]، حيث ذكر قائلا:" حقيقة إنه لاحترام عظيم، عندما يتم نصب المواقد وكراسي الموائد للاحتفال بالولائم في كل شوارع المدينة، وتحويل مظهر المدينة إلى حانة ، ويختلط الوحل بالخمر، ويتم الجري جماعيا من أجل الاستسلام للإهانات والفواحش وملذات الطيش، فهل الفرحة العامة لا تستطيع أن تظهر إلا عن طريق الفضيحة العامة؟"[53]. وهكذا كانت هذه الاحتفالات تحضرها جماهير غفيرة من أجل ملأ بطونهم وإشباع شهواتهم في الأكل والشرب ، وهي بهذه الصفة مناسبة للتأثير على نفسية الجمهور الجائع وإقناعه بجلال الإمبراطور العطوف الجديد بالحب والتقدير[54].

ورغم ذلك فإن هذه العبادة الرسمية لم تقدر أن تتغلغل في نفوس الجماهير الأهلية التي صمدت أغلبيتها المتمسكة أشد التمسك بتقاليدها في وجه الديانة الرومانية كشأنهم إزاء الحضارة الرومانية[55]. وأمام العجز الذي منيت به الديانة الرومانية في كسب ميول أغلبية الجماهير، رأى بعض الأباطرة أن يعمل على تشجيع انتشار المعتقدات الدخيلة عن الديانة الرومانية[56]، وما يثبت هذا هو وجود العديد من الأدلة الأثرية التي تؤكد تواصل الديانة البونية والليبية أثناء السيطرة الرومانية[57].

وأما الطبقة الأرستقراطية فإنها غالبا ما نبذت هذه المعتقدات القديمة وعوضتها بآلهة رومانية، وفي مقدمتها ثالوث الكابتول وجوبتر(Jupiter)

وجونون(Junon) ومنيرفا(Minerve)، إلى جانب آلهة أخرى منها مارس(Mars) وهرمس(Mercure) وغيرها[58].

ولكن رغم ذلك فإن المؤرخ مارسيل بن عبو قد لاحظ أنهم قد حاولوا كنوع من الصمود والمقاومة للرومنة بأن قاموا بأفرقة الآلهة الرومانية حسب ما اصطلح عليه ، أو وبعبارة أخرى أنهم أدمجوا معتقداتهم القديمة في المعتقد الروماني[59]، إذ بقوا يعبدون آلهتهم البونية ولكن بصورة واسم مختلفين، حيث ظهر مثلا بعل حمون البونيقي(Baal -Hammon) تحت اسم الإله الروماني ساتورنوس(Saturnus) إله الفلاحة والغلال، وقد استطاع هذا الأخير أن يتغلغل أكثر من غيره من آلهة روما ويحتل تدريجيا مكانة مرموقة في أوساط الأهالي المتأثرين بالحضارة الرومانية في كل إفريقيا وبالخصوص في البروقنصلية ونوميديا، ذلك أنه بدا في صورة معبود أصيل كان القوم يبجلونه ويقدسونه[60].

ورغم أن سياسة الرومنة قد حاولت أن ترتدي ثوب الديانة الوثنية والذي بدا واضحا في نحت التماثيل والزخرفة العمرانية التي كانت ذات مسحة رومانية تبرهن بما فيه الكفاية عن إلحاق شمال إفريقيا من حيث الديانة بالدولة الرومانية[61] ، إلا أن الدين الإفريقي قد احتفظ فيما يتعلق بلب العقيدة وجوهرها بخصائصه المميزة، التي تعبر عنها الطقوس والأشكال المرسومة على اللوحات، وحتى العبارات المستخدمة في الإهداءات الدينية اللاتينية، التي تحاكي الصيغ التقليدية المتعارف عليها منذ القدم، محاكاة مثيرة[62].

وهكذا عجزت الديانة الوثنية التي أتاحت لها المؤسسة الاستعمارية كل فرص النجاح على التغلغل في أعماق معتنقيها من الأهالي، وظل الجميع محتفظا بمعتقداته القديمة، ومخلصا لآلهته التي يفضلها ؛ والتي تعبر أكثر عن أصولهم الإفريقية، ولهذا شبهها البعض بالمعبودات "الوطنية"[63].

وبهذا فرغم النجاحات الظاهرية التي حققتها روما في الجانب الثقافي ، إلا أنه تبين لنا وجود نوع من المقاومة الثقافية في صميم المجتمع الافريقي المترومن ، والذي أعطى ميلاد لحضارة من نوع خاص وهي "الحضارة الإفريقية المترومنة" حسب ما سماها المؤرخ مارسيل بن عبو[64].وهو ما يفسر فشل سياسة روما لرومنة المجتمع المغاربي، الذي استطاع أن يحافظ على هويته خصوصا في الجانب الديني واللغوي رغم فترة الاحتلال الروماني الطويلة(حوالي خمسة قرون).

الأستاذة: حميدة نشنش

الهوامش:

1-محمد البشير شنيتي، الاحتلال الروماني لبلاد المغرب (سياسة الرومنة 146ق.م-40م)، ط.2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص.75.

2- شافية شارن، بلقاسم رحماني، محمد الحبيب بشاري، الاحتلال الاستطاني وسياسة الرومنة، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص.103.

3- بلقاسم رحماني، "اثر الاستعمار الروماني في الجوانب الثقافية والاجتماعية في بلاد المغرب القديم"، في مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية، العدد2، جوان 2009، ص.1.

4- شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية(تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من البدء إلى الفتح الاسلامي 647م)، (تر.محمد مزالي، البشير بن سلامة)، ج.1، الدار التونسية للنشر، 1969، ص.248.

5-بلقاسم رحماني، "اثر الاستعمار الروماني في الجوانب الثقافية ..."، ص.7.

6-قول الأسقف أوغسطينوس نقلا عن شارل أندري جوليان ، المرجع السابق.

7-شافية شارن، بلقاسم رحماني، محمد الحبيب بشاري، الاحتلال الاستطاني... ، صص.263، 269.

8-محمد العربي عقون، "المجتمع والثقافة في الشمال الإفريقي القديم نظرة موجزة في اسهامات الجزائر في الحضارة الانسانية"، في مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، العدد43، جوان 2015، ص.28.

9- عبد الرحمن خلفة ، "جوانب من المقاومة الثقافية ضد الرومنة في الجزائر القديمة"، في تنمية الموارد البشرية ، المجلد 4، العدد2، ديسمبر2012 ، صص.165-166.

10-شافية شارن، بلقاسم رحماني، محمد الحبيب بشاري، المرجع السابق، صص.259-262.

11-شارل أندري جوليان، المرجع السابق.

12-شافية شارن، بلقاسم رحماني، محمد الحبيب بشاري، المرجع السابق، ص.261.

13-بلقاسم رحماني، "اثر الاستعمار الروماني..."، صص.7-8.

*كاتب لاتيني ولد في مداوروش في لإفريقيا(125-175م)، من عائلة أرستقراطية ثرية، درس في قرطاج وأثينا وروما، ليستقر في الأخير في قرطاجة، أين تحصل على أكبر شهرة كخطيب وكاتب، كما كان أيضا فيلسوفا، ترك عدة مؤلفات منها: "الحمار الذهبي"، أنظر:

M.Simon,la civilisation de l'antiquité et le christianisme,Arthaud,Paris,1972,P.450.

14-Apulée,florides,18 dans œuvres complétes de Pétrone ,Apulée,Aulu-Gelle, (tra.M.Nisard),J.J.Dubochet et Compagnie éd.,Paris,1842.

15-محمد العربي عقون، "المجتمع والثقافة..."، صص.27-28.

16-شافية شارن، بلقاسم رحماني، محمد الحبيب بشاري، المرجع السابق، ص.262.

17-بلقاسم رحماني، المرجع السابق، ص.9.

18-شارل أندري جوليان، المرجع السابق.

19-بلقاسم رحماني، المرجع السابق، ص. 10.

20-محمد البشير شنيتي، الاحتلال الروماني لبلاد المغرب ...، ص.86.

21-محمد العربي عقون، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الافريقي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، 2008، صص.273-275.

22-خلفة عبد الرحمن، "جوانب من المقاومة ..."، ص. 162.
23-شافية شارن، بلقاسم رحماني، محمد الحبيب بشاري، المرجع السابق، ص.104.
24-عبد الرحمن خلفة ، المرجع السابق.
25-بلقاسم رحماني، المرجع السابق، صص.12-13.
26-محمد البشير شنيتي، الاحتلال الروماني... ، صص.88-92.
27-محمد العربي عقون، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الافريقي القديم، صص.275-276.
28-شافية شارن، بلقاسم رحماني، محمد الحبيب بشاري، المرجع السابق، ص .110.
29-عبد القادر عوادي عزام، "المدينة والعمران في بلاد المغرب القديم مدينة تيمقاد الرومانية نموذجا"، في أنثروبولوجيا، المجلد1، العدد1، ص.139.
30-محمد البشير شنيتي، الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، دار الهدى ، عين مليلة، 2013، ص.218.
31-بلقاسم رحماني، المرجع السابق، ص.4.
32-رضا بن علال، "الألعاب في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني"، أطروحة الدكتوراه في التاريخ القديم، جامعة الجزائر2، 2010-2011، ص.217.
33-كريم مناصر، "بنايات نشاطات الترفيه والتسلية الرومانية في مدينة القيصرية(شرشال)"، في مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، المجلد 4، العدد 8، ص.46.
34-المرجع نفسه.
35-بلقاسم رحماني، المرجع السابق .

36-رضا بن علال ، المرجع السابق، ص.254.

37-بلقاسم رحماني، المرجع السابق، صص.4-5 .

38-عبد القادر عوادي عزام، المدينة والعمران في بلاد المغرب...، ص.49.

39-شافية شارن، بلقاسم رحماني، محمد الحبيب بشاري، المرجع السابق، ص .216.

40-بلقاسم رحماني، المرجع السابق، ص.5.

41-المرجع نفسه، ص.6.

42-عبد القادر عوادي عزام، المدينة والعمران في بلاد المغرب ...، ص.144.

43-عبد القادر عوادي عزام، المدينة والعمران في بلاد المغرب ...، صص.148-149.

44-المرجع نفسه، صص.143-144.

45- بلقاسم رحماني، " سياسة روما الدينية في بلاد المغرب"، في مجلة الآداب والعلوم الانسانية، العدد5، ديسمبر2010، ص.140.

46-شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص.253.

47-G.G.Lapeyre,A.Pellegrin,Carthage latine et chrétienne,Payot,Paris,1950,PP.90-91.

48-محمد البشير شنيتي، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني ودورها في أحداث القرن الرابع ميلادي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص.257.

49-شارل أندري جوليان، المرجع السابق.

50-محمد البشير شنيتي، المرجع السابق.

51-شارل أندري جوليان، المرجع السابق.

52-G.G.Lapeyre,A.Pellegrin,op.cit.,P.91.

35 -Tertullien,apol.,35,2,étab.,tra.,par J.P.Waltzing,les belles lettres,Paris,1929.

54-محمد البشير شنيتي، المرجع السابق، صص.263-264.

55-شارل أندري جوليان، المرجع السابق، صص.253-254.

65 - G.G.Lapeyre,A.Pellegrin,op.cit.,PP.91,97.

57-محمد البشير شنيتي، المرجع السابق، ص.263.

58-شافية شارن، بلقاسم رحماني، محمد الحبيب بشاري، المرجع السابق، ص .229.

59 -M.Bénabou ,la résistance africaine à la romanisation,éd.La découverte,2005,P.331.

60-محمد البشير شنيتي، المرجع السابق، صص.262-263.

61-محمد الصغير غانم، الملامح الباكرة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا، دار الهدى، عين مليلة، 2005 ، ص. 131.

62-رحماني، سياسة روما الدينية...، ص.142.

63-محمد البشير شنيتي، المرجع السابق، صص.259، 264.

64-M.Bénabou ,la résistance africaine …,P.256.